

## كراهية المهاجرين تحول الضيف إلى عدو

أحكام قاسية: عنف البولنديين وقذارة الطليان  
وتقاعس العرب ونهم الأفارقة للجنس



قدر المهاجر أن يظل مشوها وغريبا (لوحة للفنان باسم دحدوح)

أخرى من الشعوبية السياسية التي تروج لها وسائل إعلام عنصرية، علاوة على الأعمال الإرهابية التي ضربت فرنسا أكثر من مرة، يرفض استقبال مزيد من المهاجرين، ويعتقد أن الهجرة لعبت دورا سلبيا، بل ثمة من يرفض استقبالهم حتى بدوافع إنسانية، فقد أظهر استفتاء أجرته "أودوكسا" عام 2018 أن ثلاثة أرباع المستجوبين يرفضون استقبال الفارين عبر البحر من جميع بلدانهم.

المفارقة أن العولمة كسرت الحدود الجغرافية، فسمحت بانتقال المعلومة والبضاعة، وقررت الناس في ما بينهم، اقتراضا على الأقل، إلا أنها لم تفلح في تسهيل انتقال البشر، حيث رفعت أمامهم حواجز من الأسلاك الشائكة، وجدراننا عازلة، ونقاط تفتيش مشددة وقل قدرتهم التنافسية، ما يعني كساد اقتصادهم واحتمال تعرضهم للفقر، ولكنهم أثروا ترضية شعوبهم بكلام بعيد عن الواقع.

لا يتجاسر هؤلاء على انتقاد شعوبهم المحري فيكتور أوربان إلا من جهة عدم احترامه للديمقراطية، وبغضون الطرف عن سوء معاملته

المهاجرين الذين يطرقون أبواب القارة العجوز، وعن تدي عدد سكان بلاده في العشرية القادمة، مع زحف شيخوخة حادة لن تجد من يحل محلها.

وكل الشعوبيين في أوروبا يعدون شعوبهم بالممارسة نفسها لو يصلون إلى السلطة، ويتناسون أن الجسد، كما يقول علماء البيولوجيا، يحتاج إلى عنصر دخيل لضمان بقائه وتجدده، وإذا استطاعت بعض البلدان أن تسيطر على الهجرة، فما الفرق بينها وبين الأنظمة التي تدعو إلى مجتمع النقاء والطهر؟

يقول الإيطالي روبرتو إسبوزيتو "لا وجود لمجموعة بشرية تحضنها مناعة، ولكن الإفراط فيها يهدد بتدمير معنى وجودنا نفسه".

ما يجله عامة الناس الذين يقفون في معظمهم من مسألة الهجرة موقفا عاطفيا، وبدل أن يصارحوا شعوبهم لجأوا إلى ثيمة معاداة الأجنبي التي تسمح لهم بتقديم خطاب يدغدغ مشاعر متخبيهم، ويضمن لهم البقاء في السلطة أو الوصول إلى مواقع أرفع.

والحال أن مؤشرات التنافس في فرنسا، وفي أوروبا بوجه عام، لا تسمح بضمناً تجد السكان، ما يجعل الهجرة ضرورية اقتصاديا وماليا على المدى القصير. مؤثر الخصوبة في بلدان الاتحاد الأوروبي، حسب إحصائيات 2016، يشير إلى نسبة طفل فاصل ستة لكل امرأة قادرة على الإنجاب، فيما يستوجب تجديد السكان اثنين فاصل واحد، أي أن سكان أوروبا يسببون إلى التناقص والهرم مع ما يعني ذلك من ضياع الدينامية وضعف التأقلم مع المستجدات العصرية. وبما أن نسبة النمو الاقتصادي سنويا في تراجع، فليس السكان المتقدمون في السن هم الذين سيبدلون الكفة أو يرحجونها، أضف إلى ذلك أن صناديق التقاعد والحياطة الاجتماعية التي تعاني من عجز فاح منذ سنين طويلة، ستزداد عجزا بتكاثر عدد المتقاعدين وبلوغهم سن الشيخوخة.

والسبب الثاني، المترتب عن سابقة، أن الحكام يعرفون أن بلادهم تحتاج إلى المهاجرين لتجديد النسل لا محالة، ولتأمين الدورة الاقتصادية أيضا، خاصة في مجالات ينفر منها أبناء البلاد؛ مثلما يعرفون أن المهاجرين يعطون فرنسا أكثر مما يأخذون، ولكنهم لا يجاهرون بذلك، لأن في الجهر به مقتلهم السياسي.

ذلك أن الرأي العام بعد أعوام من خطاب العداء والكراهية وأعوام

يحدث هذا رغم أن الدراسات العلمية أثبتت أن الأرباح الاقتصادية للهجرة تفوق أو تعادل تكاليفها، وأن المهاجرين يقولون الأعمال التي ينبتها أهل البلاد، بل إن حضورهم يخلق مواطن شغل، وأن المسلمين أقلية، ودينهم لا يمثل خطرا على المجتمع. بيد أن تلك المعتدات تجد أذانا صاغية، لاسيما أن بعض وسائل الإعلام ما انفكت تشهرها وترجحها أثناء الليل وأطراف النهار حتى ترسخ في الأذهان كحقيقة ثابتة، وكانت النتيجة أن تولدت في نفوس الناس أفكار مسيكة عن المهاجرين، مشفوعة بالخوف أو بالكراهية أو بكليهما معا.

ولئن كان الخوف يشير إلى عنصر بين نوعا ما، فإن الكراهية هي إطار لموضوع مجهول، يلقي عليه أهل البلد المضيف صورة متوهمة لا وجود لها أحيانا إلا في أذهانهم، كعنف البولنديين، وقذارة الطليان، وضراوة الألبان، وتقاعس العرب، ونهم الأفارقة للجنس... وإن كانوا على الأقل يميزون بين هذه الفئة أو تلك، أما اليوم فهم يضعون كل المهاجرين في سلة واحدة، وينظرون إليهم ككتلة متجانسة، تهدد الحضارة الغربية برمتها.

فكيف تحولت الضيافة إلى عداء؟

## الضيف العدو

كان دريدا قد ابتكر عبارة جديدة هي *hosti-pitalité* اشتقتها من الجذر اللاتيني *hostis* هوستيس الذي يعني الضيف والمضيف في الوقت نفسه، ومنه الضيافة *hospitalité*، ويعني أيضا العدائي *hostile*، ومنه المعاداة *hostilité*. ودريدا لم يصغ تلك اللفظة المركبة التي تعني الشيء ونقيضه اعتباطا، وإنما لأن الضيف قد ينظر إليه كعدو محتمل. وهذا ما دأبت عليه الأحزاب السياسية التي جعلت من مقاومة الهجرة رهانا كان من نتيجته صعود الأحزاب السياسية اليمينية المتطرفة، وانكفاء الأقليات في مجموعات عرقية ودينية لعجز الحكومات المتعاقبة على إدماجها في النسيج الاجتماعي الفرنسي، وبدل الاستناد إلى الدراسات العلمية التي تناولت الواقع الديمغرافي والاقتصادي، واختار الجميع ترويض الشعيرات نفسها، وتحميل المهاجرين التراجع الاقتصادي الذي تشهده فرنسا عند كل حملة انتخابية حتى صار الإقرار بالواقع من التابوهات.

ومر ذلك إلى سببين أساسيين: أولهما أن المعلومات الجغرافية التي بحوزة الحكام تؤكد على ضرورة مواصلة استقبال المهاجرين، وهو

رغم انفتاح الشعوب على بعضها بعضا، وما فرضته العولمة من تقارب، فإن الارتياح من الاختلاف تقاوم أكثر من ذي قبل، وهو ما نراه خاصة في أوروبا. فكيف تستقبل أوروبا الآخر غير الأوروبي وما هي آثار بث ثقافة الخوف في ذلك؟

أبوبكر العيادي  
كاتب تونسي

تكد الحضرارات على مَزِ الأزمئة تلنقى حول واجب استقبال الضيف وإكرامه، سواء أكان عابرا سبيل أم هاربا أم لاجئا، إذ كان العرب قبل الإسلام ويعتبرون إكرام الضيف قيمة من القيم الأصيلة التي يجدر بالمراء المحافظة عليها، وكان الإغريق القدامى يعنون استقبال الغريب رحمة لها صلة بالورع والتقوى وفاء للرب زيوس، لأن في استقباله احتراماً للإنسان باسم الذات الإلهية، وهو ما شجّع الناس على الارتحال طلبا للرزق أو الأمن أو بحثا عن مكان يجدون فيه راحتهم المادية والنفسية.

إلا أن الأزمئة الحديثة التي بدأت مع الثورة الصناعية خلقت معطيات جديدة، فقد احتاج أرباب المصانع إلى أيد عاملة لم يعد السكان الأصليون وحدهم قادرين على سدّ مسدّها، فبدأت الهجرات الجماعية إلى مواقع الإنتاج الصناعي.

## الرفض والكراهية

رغم أن المهاجرين الأوائل كانوا من أوروبا نفسها، أي من نفس العرق والملة، واستقدموا لتلبية لحاجة، فإنهم قوبلوا بالنفور والعداء، ولم تكن مشاعر رفض فظة من الأجنبي تزول إلا لالتحول إلى فئة جديدة. ففي فرنسا مثلا ظهرت تلك المشاعر تجاه البولنديين ثم تحولت إلى الطليان، ثم إلى الإسبان، فالبرتغاليين. ولكنّها اتخذت وجهها آخر مع وفود عرب شمال أفريقيا، ثمّ أفارقة جنوب الصحراء الكبرى، قبل أن تقدم شعوب أخرى هاربة من الاستبداد والحروب والمجاعات والكوارث الطبيعية، لكون هذه الفئات الجديدة من أجناس وثقافات غير أوروبية لها معتقدات وعادات تخالف ما في البلد المضيف.

وكان من أثر ذلك أن تحول النفور إلى كراهية، لاسيما بعد نهاية مرحلة "الثلاثينات الجديدة" التي شهدها فيها فرنسا ازدهارا ملحوظا عقب الحرب العالمية الثانية، وبداية الانتكاس الاقتصادي، ومبعث تلك الكراهية خوف من مسألتين: أن يستحوذ القادمون الجدد على مواطن الشغل، فضلا عن كونهم يكلفون المجتمع غاليليا، وأن يهددوا ثقافة السكان الأصليين ودينهم، حتى أن بعضهم عثر عن خشيته من أن يتحول الفرنسيون كلهم إلى مسلمين.

أي أن القائلين بالرأي الأول يلتقون حول العواقب الملمية لحضور الأجنبي، بينما يركز أصحاب الرأي الثاني على الملامح الرمزية. ومنطلق كل تلك المعتدات مسأرا أساسيا، أي تقريبا، يسميه علماء الاجتماع بـ "التصنيف الاجتماعي"، وقوامه ترتيب وتنظيم المجتمع بالتأكيد على الفوارق بين الفئات الاجتماعية، مع تقليل الفوارق داخلها، ما يؤدي إلى قوالب منمّطة جاهزة، فإذا ما طبق هذا التصنيف على المهاجرين، ألغيت كل الفروق في ما بينهم، وصارت لهم صورة متجانسة لا يُنظر إليها في الغالب إلا سلبيا.

وبموجب ذلك الغالب يقع تقديم المهاجرين كاشخاص منفردين وعديمي الكفاءة، فهم في نظر عامة الناس متعاضون، يعيشون على المساعدات الاجتماعية، ويتمسكون بمعتقداتهم وعاداتهم، ولا يريدون الاندماج في المجتمع الفرنسي، وفي أحسن الأحوال يضيّقون على الفرنسيين فرص الشغل. وبما أن من المهاجرين أغلبية مسلمة، فإن بعضهم يتحدث عن "صدام حضارات" وبعضهم الآخر عن "تعويض أكبر" يخطط له المسلمون لفرص ديانتهم وهيمنتهم على العالم الغربي تدريجيا.

## المغرب يشجع على إثراء الموسوعات الرقمية الثقافية

الرباط - تم الإعلان أخيرا في الرباط عن إحداه جائزة وطنية سنوية لأفضل المنشورات الثقافية المغربية على الموسوعات الرقمية التشاركية، مخصصة للنصوص والصور والملفات الصوتية والفيديو.

جاء ذلك ضمن اتفاقية إطار الشراكة تم توقيعها بين وزارة الثقافة والشباب والرياضة وأكاديمية المملكة المغربية، وتروم تتمين الأعمال الفكرية المغربية، وذلك وعيا بغنى التراث المغربي وتعدد أصنافه وروافده، ومن أجل تعزيز العرض الثقافي الوطني وتطوير أساليب تقديمه وإتاحته.

ويندرج توقيع الاتفاقية في إطار الدور المنوط بالوزارة والأكاديمية لا سيما في تجسيد توجهات هيكلية الأكاديمية التي تعززت بمهام جديدة. وتتوخى الاتفاقية تشجيع طلاب الجامعات وموظفي الوزارة والمؤسسات التابعة لها وأكاديمية المملكة على الاستئناس بأفضل أساليب الاستخدام والمساهمة الفعالة في الموسوعات الرقمية التشاركية ومواكبة ظهور ممارسات ثقافية ورقمية جديدة، وتشجيع ديمقراطية الثقافة، وتعزيز الغنى الثقافي والرمزي الوطني بلغات مختلفة.

## الموسوعات الرقمية التشاركية لها مساهمة فعالة في مواكبة ظهور ممارسات ثقافية ورقمية جديدة وديمقراطية الثقافة

من جهته أكد عبد الله عفيفي الكاتب العام لوزارة الثقافة والشباب والرياضة - قطاع الثقافة في تصريح له عقب التوقيع على الاتفاقية أن هذه الأخيرة تعد أداة لإبراز الموروث الثقافي الوطني على الصعيد الدولي، وتتمين الثقافة المغربية، فضلا عن تشجيع الطلبة والباحثين والمهتمين على استخدام مختلف الوسائل الحديثة وأفضل السبل للولوج إلى الموسوعات الرقمية التشاركية والمساهمة فيها.

وأضاف أن الاتفاقية تتوخى أيضا ضمان تدفق بيانات ومعطيات بخصوص المغرب في هذه الموسوعات الرقمية وتجويز محتواها.

يشار إلى أنه من ضمن أهداف الاتفاقية أيضا إغناء وتطوير المحتوى المععلق بالثقافة المغربية المتشور على الموسوعات الرقمية التشاركية من خلال التعاون المشترك والمستمر بين الأكاديمية والوزارة الوصية والمؤسسات التابعة لها، بهدف الرقي بالمضامين الثقافية لهذه الموسوعات التي تشكل فضاء مفتوحا لتبادل المعرفة.

ويذكر أن هناك الكثير من الموسوعات وقواعد البيانات على الإنترنت في مجالات متعددة ومفيدة جدا، ولها قدر لا بأس به من الزوار والمتابعين المتخصصين إلى حد كبير، ويعتبر المجال الثقافي أكثر المجالات التي تركز مختلف الدول على تخصيص موسوعات رقمية لها.

ويأتي التشجيع على فتح الموسوعات الرقمية في المغرب في وقت تعاني فيه الموسوعات ودوائر المعارف العربية أزمة كبيرة، سواء في وجودها من الأصل أو في حداتها وعصريتها وتغطيتها لأوجه المعارف والحضارة قديمها وحديثها، وهو ما يدعو القائمين على المشروع المغربي إلى تلافية خاصة من خلال تشريك الشباب والذي ستكون هذه الجائزة فرصة له للانخراط في التدوين والإنتاج الثقافي البناء.

وتفعيلا لأهداف هذا التعاون الوثيق بين المؤسسات تم وضع عدة آليات ومراجع أساسية منها وثيقة مؤطرة تحدد الرؤية الاستراتيجية، وإعداد خطة عمل تبرز المعالم الرئيسية للمشروع والإطار الأكاديمي له وقانون الجائزة، بالإضافة إلى فريق من المتخصصين ولجنة تحكيم تضم خبراء أكاديميين. وفي كلمة بالمناسبة أبرز عبد الجليل

الحجمي أمين السبر الدائم لأكاديمية المملكة أن هذه المبادرة تروم توطيد الشراكة الثقافية وتتمين جسور التعاون الفكرية بين الأكاديمية والوزارة، مشيرا إلى أن المشروع سيركز في مرحلة أولى على الجوانب الثقافية وكل مكونات التراث المغربي على الخصوص بغية إبراز محطاته المضيئة وحماية وتطوير وتنقيح محتوياته وتحديثها نصا وصورة وأشطرة بما يحقق طموح المغاربة الذين يعتبرون "تراثنا جهاز مناعة لأجيالنا وجسرا متينا للعبور بذاتنا الثقافية وهويتنا الحضارية إلى غد مغربي متوهج يواكب بوحي تحديات الثورة الرقمية في عالمنا المعاصر".

وسجل الحجمي أن الكثير مما بات متداول اليوم في المنصات والشبكات الاجتماعية من محتويات متنوعة وأفراءات تطلال تاريخ وثقافة المغرب "لا يستند إلى أي منهج أو مقاربات علمية، ناهيك عن غياب المرجعيات التي من المفروض أن تضمن لها حدا أدنى من الموضوعية والنزاهة الفكرية".

وأكده لهذا السبب اختارت الوزارة والأكاديمية الإنجاب في مرحلة أولى من هذا المشروع على محتويات الموسوعات الرقمية العالمية المتعلقة بالتراث المغربي بمختلف أنماطه التعبيرية وخصوصا ما



الموسوعات عوالم معرفية تواكب العصر